٧٢ – باب تحريم الكبر والإعجاب

قَالَ الله تَعَالَى: {تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [القصص: ٨٣] وقال تعالى: {وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحا} [الإسراء: ٣٧] وقال تَعَالَى: {وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [لقمان: ١٨].

ومعنى «تُصَعِّرِ خَدَّكَ لِلنَّاسِ» أيْ تُمِيلُهُ وتُعرِضُ بِهِ عَنِ النَّاسِ تَكَبُّرًا عَلَيْهِمْ. وَ «المَرَحُ» التَّبَخْتُرُ. وقال تَعَالَى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالعُصْبَةِ أُولِي القُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الفَرِحِينَ} [القصص: ٧٦] إِلَى قَوْله تَعَالَى: {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ} الآيات.

==========

قَالَ الله تَعَالَى (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا) .

قال ابن كثير : يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول ، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين ، الذين لا يريدون علوا في الأرض ، أي : ترفعا على خلق الله وتعاظما عليهم وتجبرا بهم ، ولا فسادا فيهم .

وقال القرطبي : **(تلك الدار الآخرة)** يعني الجنة وقال ذلك على جهة التعظيم لها والتفخيم لشأنها يعني تلك التي سمعت بذكرها، وبلغك وصفها (**نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض**) أي رفعة وتكبراً على الإيمان والمؤمنين (**ولا فساداً**) عملاً بالمعاصي.

وقال السعدي : (**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ** } التي أخبر الله بها في كتبه وأخبرت بها رسله، التي قد جمعت كل نعيم، واندفع عنها كل مكدر ومنغص، (**نَجْعَلُهَا**) داراً وقراراً (**لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا**) أي: ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله، والتكبر عليهم وعلى الحق (وَلَا فَسَادًا) وهذا شامل لجميع المعاصي، فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض والإفساد، لزم من ذلك، أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والانقياد للحق والعمل الصالح.

من فوائد الآية :

١–تحريم التكبر .

٢–تحريم العلو على الناس واحتقارهم .

٣–تحريم الفساد في الأرض بكل أنواعه .

٤–أن العبرة بحال القلب والنية، فقوله تعالى (لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا) يشمل إرادة العلو في النفس، وليس فقط الفعل الظاهر؛ فالمؤمن يحرص على سلامة قلبه من حب التكبر والتسلط.

٥–أن ترك الفساد عبادة

٦–ليس المطلوب من المسلم فعل الخير فقط، بل كذلك الكف عن إفساد حياة الناس وإيذائهم وظلمهم.

٧–التحذير من حب المنزلة والجاه .

٨–قد يكون الإنسان صالحًا في ظاهره، لكن حب الشهرة والتميز والتعالي على الآخرين قد يفسد عليه قلبه.

وقال تعالى (وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً) .

(**وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً**) نهى تعالى عن التبختر والتكبر في المشي.

قال السعدي: أي كبرا وتيها وبطرا متكبرا على الحق ومتعاظما على الخلق.

وتقييد النهى بقوله (في الأرض) للتذكير بالمبدأ والمعاد، المانعين من الكبر والخيلاء، إذ من الأرض خلق وإليها يعود، ومن كان كذلك كان جديراً به أن يتواضع لا أن يتكبر، قال تعالى (مِنْها خَلَقْناكُمْ وَفِيها نُعِيدُكُمْ، وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى). (التفسير الوسيط)

قال ابن عاشور: نهي عن خصلة من خصال الجاهلية، وهي خصلة الكبرياء، وكان أهل الجاهلية يتعمدونها.

المرح بفتح الميم وفتح الراء: شدة ازدهاء المرء وفرحه بحاله في عظمة الرزق.

قال ابن عطية: قرأ الجمهور "مرَحاً" بفتح الراء مصدر من مرَح يمرَح إذا تسبب مسروراً بدنياه مقبلاً على راحته، فهذا هو المرح، فنهي الإنسان في هذه الآية أن يكون مشيه في الأرض على هذا الوجه.

قال الرازي: والمراد من الآية النهي عن أن يمشي الإنسان مشياً يدل على الكبرياء والعظمة.

قال الزجاج: لا تمش في الأرض مختالاً فخوراً ونظيره قوله تعالى في سورة الفرقان (وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً).

تكملة الآية : (إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً) .

(إنكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ) لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها وشدة وطئك عليها.

ورجح هذا القول: ابن جزي، والسمعاني، والبغوي، والبيضاوي، والآلوسي، والشنقيطي.

قال الشنقيطي: وأظهر القولين عندي في قوله تعالى (إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأرض) أن معناه لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها وشدة وطئك عليها، ويدل لهذا المعنى قوله بعده (وَلَن تَبْلُغَ الجبال طُولاً) أي انت إيها المتكبر المختال: ضعيف حقير عاجز محصور بين جمادين! أنت عاجز عن التأثير فيهما.

وقال الآلوسي: قوله تعالى (إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأرض) تعليل للنهي وفيه تهكم بالمختال أي إنك لن تقدر أن تجعل فيها خرقاً بدوسك وشدة وطأتك.

وقيل: لن تقطع الأرض بمشيك.

ورجحه ابن جرير، وابن عطية، والقرطبي، والخازن.

وذكر القولين من غير ترجيح: الماوردي، وابن الجوزي.

(وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً) أي لن تتطاول وتتجاوز الجبال، أي: لن يبلغ طولك الجبال.

والمعنى: فأنت أحقر وأضعف من كل واحد من الجماديْن، فكيف تتكبر وتختال وأنت أضعف من الأرض والجبال؟ وفي هذا تهكم وتقريع للمتكبرين.

قال ابن عاشور: والمقصود من التهكم التشنيع بهذا الفعل، فدل ذلك على أن المنهي عنه حرام لأنه فساد في خلق صاحبه وسوء في نيته وإهانة للناس بإظهار الشفوف عليهم وإرهابهم بقوته.

قال ابن كثير: ... بل قد يجازي فاعل ذلك بنقيض قصده: كما ثبت في الحديث:

(بينما رجل يمشي فيمن قبلكم وعليه بردان يتبختر فيهما، إذ خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة).

من فوائد الآية :

١-النهي عن التكبر والتبختر في المشي ، فالآية تنهى الإنسان عن المشي بتكبر وخيلاء، وعن الشعور بالتعالي على الآخرين.

٢-تذكير الإنسان بضعفه ، فمهما بلغ الإنسان من قوة أو مكانة، فهو لا يستطيع أن يشق الأرض أو يبلغ علو الجبال؛ وهذا يذكّره بحجمه الحقيقي.

٣-الحث على التواضع .

٤-التواضع من الأخلاق التي يحبها الله، بينما الكبر من الأخلاق المذمومة.

٥-عدم الاغترار بالقوة والمكانة .

٦-المال والجمال والمنصب والقوة أمور زائلة، فلا ينبغي أن تجعل الإنسان متكبرًا على غيره.

٧-التفكر في خلق الله .

٨-ذكر الأرض والجبال يلفت النظر إلى عظمة خلق الله، وإلى ضعف الإنسان أمام هذا الكون العظيم.

٩-تهذيب السلوك الظاهر والباطن .

١٠-تعزيز احترام الآخرين .

وقال تَعَالَى (وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) .

قال ابنُ كثيرٍ: وَلَا تُصَعِّر خَدّك لِلنَّاسِ " يَقُول لَا تَتَكَبَّر فَتَحْتَقِر عِبَاد اللَّه وَتُعْرِض عَنْهُمْ بِوَجْهِك إِذَا كَلَّمُوك ... .

(**وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْض مَرَحًا**) أَيْ خُيَلَاء مُتَكَبِّرًا جَبَّارًا عَنِيدًا لَا تَفْعَل ذَلِكَ يُبْغِضك اللَّه وَلِهَذَا قَالَ :

(**إِنَّ اللَّه لَا يُحِبّ كُلّ مُخْتَال فَخُور**) أَيْ مُخْتَال مُعْجَب فِي نَفْسه فَخُور أَيْ عَلَى غَيْره وَقَالَ تَعَالَى " وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْض مَرَحًا إِنَّك لَنْ تَخْرِق الْأَرْض وَلَنْ تَبْلُغ الْجِبَال طُولًا .

وقال ابنُ العربي: (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّك) يَعْنِي لَا تُمِلْهُ عَنْهُمْ تَكَبُّرًا، يُرِيدُ أَقْبِلْ عَلَيْهِمْ مُتَوَاضِعًا، مُؤْنِسًا مُسْتَأْنِسًا، وَإِذَا حَدَّثَك أَحَدُهُمْ فَأَصْغِ إلَيْهِ، حَتَّى يُكْمِلَ حَدِيثَهُ، وَكَذَلِكَ كَانَ يَفْعَلُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

وقال السعدي : (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ) أي: لا تُمِلْهُ وتعبس بوجهك الناس، تكبُّرًا عليهم، وتعاظما (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا) أي: بطراً، فخراً بالنعم، ناسيا المنعم، معجباً بنفسك (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ) في نفسه وهيئته وتعاظمه (فَخُور) بقوله.

من فوائد الآية :

١- ذَمُّ هاتَيْن الخُصْلَتَيْن: تَصْعِيرُ الخَدِّ للنَّاس تَكَبُّرًا وتَعَاظُمًا، والمشْيُ في الأَرْضِ مَرَحًا، وقد دَلَّت الآيَاتُ الأخْرَى على أنَّهُما مِن المُحَرَّمَات كما في سُورَة الإسْرَاء .

٢- أنَّه ينْبَغِي لِلإِنْسَان عِنْد مُحَادَثَةِ غيْرِه أن يَكُونَ مُقْبِلًا إلَيْه بِوَجْهِه، لِأنَّ النَّهي عن تَصْعِير الخَد يدُلُّ على الأَمْر بِضِدِّه وهو أن يكُون مُقْبِلًا إلَيْه بوجْهِه.

٣-أنَّه ينبغي في المشْي أن نَكُون كما قال الله عَزَّ وجل بعْدَ ذلك (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ).

٤- تَحْرِيمُ الاخْتِيَال والفَخْر، لأنَّ الله نَفَى مَحَبَّتَه له وقَد سَبَقَ الفَرْق بَين الاخْتِيَال والفَخْر، الفَخْر بالقَوْل، والاخْتِيَال بالفِعْل .

٥-(كل مختال فخور) الفرق بينهما أن الاختيال يكون بالنفس، والفخر يكون بالقول، فهذا الرجل عنده خيلاء في نفسه واختيال على عباد الله، وعنده فخر بلسانه يفخر بنفسه ويقول: أنا فلان بن فلان، ويمتدح نفسه، ولكن هذا ما لم يكن في الحرب، فإن كان في الحرب فلا بأس أن يفخر الإنسان كما قال النبي ﷺ: أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ.

وقال تَعَالَى (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الفَرِحِينَ .... ، إِلَى قَوْله تَعَالَى: فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ) .

(**إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى**) أي : من بنى إسرائيل الذين أرسل إليهم موسى كما أرسل إلى فرعون وقومه.

(**فَبَغَى عَلَيْهِمْ**) أي : فتطاول عليهم، وتجاوز الحدود في ظلمهم وفي الاعتداء عليهم.

ولم يحدد القرآن كيفية بغيه أو الأشياء التي بغى عليهم فيها، للإشارة إلى أن بغيه قد شمل كل ما من شأنه أن يسمى بغيا من أقوال أو أفعال.

(**وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ**) أي : وآتينا قارون- بقدرتنا وفضلنا- من الأموال الكثيرة، ما يثقل حمل مفاتح خزائنها، العصبة من الرجال الأقوياء، بحيث تجعلهم شبه عاجزين عن حملها.

والكنوز: جمع كنز وهو المال الكثير المدخر .

قال ابن كثير : (لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ) أي : لَيُثقلُ حملُها الفئامَ من الناس لكثرتها.

(**إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ**) ناصحين له محذرين له عن الطغيان:

(**لا تَفْرَحْ**) المراد بالفرح هنا فرح البطر والأشر والتفاخر على الناس .

(**إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ**) أي : فإن الله تعالى لا يحب من كان كذلك.

(**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ**) أي : واطلب فيما أعطاك الله تعالى من أموال عظيمة، ثواب الدار الآخرة، عن طريق إنفاق جزء من مالك في وجوه الخير، كالإحسان إلى الفقراء والمحتاجين.

(**وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**) أي : اجعل مالك زادا لآخرتك، ولا تترك التنعم بنعم الله في دنياك، فإن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، ولضيفك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه.

(**وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ**) أي : أحسن إلى عباد الله بأن تترك البغي عليهم، وتعطيهم حقوقهم. مثل ما أحسن الله إليك بنعم كثيرة.

قال ابن عثيمين : الكافُ هنا للتَّعليل، وليست للتَّشبيه؛ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ لإنسان أَنْ يُحْسِنَ مِثْلَ مَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ، فإحسان اللَّهِ إِلَيْهِ أكملُ وأعظمُ، وَقَدْ جَاءَتِ الكاف للتَّعليل فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ، مِثْلَ قَوْلِهِ تعالى (وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ) أي: واذكروه لهدايتكم، وَمِثْلَ قَوْلِهِ ﷺ : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ"، فإن الكافَ هنا للتَّعليل، وليست للتَّشبيه.

(**وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ**) أي : ولا تطلب الفساد في الأرض عن طريق البغي والظلم .

(**إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**) كما أنه- سبحانه- لا يحب الفرحين المختالين.

(**قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي**) أي : قال قارون في الرد على ناصحيه: إن هذا المال الكثير الذي تحت يدي، إنما أوتيته بسبب علمي وجدي واجتهادي.. فكيف تطلبون منى أن أتصرف بمقتضى نصائحكم؟ لا. لن أتبع تلك النصائح التي وجهتموها إلى، فإن هذا المال مالي ولا شأن لكم بتصرفي فيه، كما أنه لا شأن لكم بتصرفاتي الخاصة، ولا بسلوكي في حياتي التي أملكها.

(**أَوَلَمْ يَعْلَمْ**) هذا المغرور المتكبر .

(**أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا**) أن الله تعالى قد أهلك من قبله. من أهل القرون السابقة عليه من هو أشد منه في القوة، وأكثر منه في جمع المال واكتنازه.

فالمقصود بالجملة الكريمة تهديده وتوبيخه على غروره وبطره.

(**وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ**) أي : والحال أنه لا يسأل عن ذنوبهم المجرمون سؤال استعتاب واستعلام، لأن الله تعالى لا يخفى عليه شيء. وإنما يسألون -كما جاء في قوله تعالى فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ- سؤال توبيخ وإفضاح.

فالمراد بالنفي في قوله سبحانه وَلا يُسْئَلُ.. سؤال الاستعلام والاستعتاب، والمراد بالإثبات في قوله: فَلَنَسْئَلَنَّ أو في قوله: فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ سؤال التقريع والتوبيخ.

(**فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ**) أي: بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه، قد كان له من الأموال ما كان، وقد استعد وتجمل بأعظم ما يمكنه، وتلك الزينة في العادة من مثله تكون هائلة، جمعت زينة الدنيا وزهرتها وبهجتها وغضارتها وفخرها، فرمقته في تلك الحالة العيون، وملأت بِزَّتُهُ القلوب، واختلبت زينته النفوس .

وأمام هذه الزينة الفخمة التي خرج فيها قارون، انقسم الناس إلى فريقين

(**قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**) أي : خرج قارون على قومه في زينته، فما كان من الذين يريدون الحياة الدنيا وزخارفها من قومه، إلا أن قالوا على سبيل التمني والانبهار.. يا ليت لنا مثل ما أوتيَ قارون من مال وزينة ورياش، إنه لذو حظ عظيم، ونصيب ضخم، من متاع الدنيا وزينتها.

(**وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ**) أي : وقال الذين أوتوا العلم النافع من قوم قارون. لمن يريدون الحياة الدنيا: كفوا عن قولكم هذا، واتركوا الرغبة في أن تكونوا مثله، فإن ثَوابُ اللَّهِ في الآخرة خَيْرٌ مما تمنيتموه، وهذا الثواب إنما هو لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فلا تتمنوا عرض الدنيا الزائل. ... وهذه المثوبة العظمى التي أعدها الله تعالى لمن آمن وعمل صالحاً وَلا يُلَقَّاها أي: لا يظفر بها، ولا يوفق للعمل لها إِلَّا الصَّابِرُونَ على طاعة الله تعالى وعلى ترك المعاصي والشهوات.

(**فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ**) **قال ابن كثير** لما ذكر الله تعالى اختيال قارون في زينته، وفخره على قومه وبغيه عليهم، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض، كما ثبت في الصحيح -عند البخاري من حديث الزهري عن سالم- أن أباه حدثه: أن رسول الله ﷺ قال : بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة .

قال السعدي : (فخسفنا به ..) جزاء من جنس عمله، فكما رفع نفسه على عباد الله، أنزله الله أسفل سافلين، هو وما اغتر به، من داره وأثاثه، ومتاعه.

من فوائد الآيات :

١-أَنَّ الغِنى سبب للطُّغيان؛ لأن قارون إنما بَغَى وطغى بسبب مَا آتَاهُ اللَّهُ تعالى مِنَ المالِ.

٢-أَنَّ اللَّهَ يَبتلي بِإِعْطَاءِ المالِ العبدَ به، فَكَمَا أَنَّ الْفَقْرَ ابتلاء، فكذلك الغنى ابتلاء.

٣- كثرةُ أموال هَذَا الرَّجُلِ لقوله (إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ) .

٤- أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ بَغى عَنْ عِلْمٍ؛ لأنه نُصِح، وَقَالَ لَهُ قومه: {لَا تَفْرَحْ} فنصحوه، وَلَكِنَّهُ اسْتَمَرَّ فِي طُغْيَانِهِ.

٥- أَنْ قارون كَانَ يُنْفِقُ المالَ بِغَيْرِ رَوِيَّةٍ فِي المعَاصِي والفساد .

٦-ينبغي على العبد أن يقصد بماله وجه الله .

٧-أَنَّ المالَ -وَإِنِ اكتسبه العبدُ بِفِعْله- فَهُوَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ؛ لقوله (فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ) .

٨- إثبات الْيَوْمِ الآخِرِ .

٩-جواز تمتُّع الْإِنْسَانِ بِمَا آتَاهُ اللَّهُ تعالى فِي الدُّنْيَا، ولكن بِشَرْطِ أَلَّا يَكُونَ عَلَى سَبِيلِ المعصية .

١٠-حُسْنُ دعوة هؤُلاءِ، حيث ذَكَّروه بنعمة الله عليه، لقوله: {وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ} فكأنهم يقولون: أحسِنْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أحسنَ إليك، فأنت حينما تُحسن تكون شاكرًا لِنِعْمَةِ اللَّهِ.

١١- أَنَّهُ يَنْبَغِي للدَّاعي أَنْ يُذَكِّرَ المدعو بنعمة اللَّهِ سبحانه وتعالى؛ لأن الْإِنْسَانَ إِذَا ذُكِّر بالنعمة، فقد يَخْجَلُ مِنَ اللَّهِ، فَلَا يَعْصِهِ.

١٢- تحريم نِيَّة الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ؛ لقوله: {وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ} وإذا حَرُمت نِيَّة الفساد، فالفسادُ نَفْسُه مِنْ بَابِ أَولى، ويَحْرُم عَلَى المرْءِ أَنْ يُفسِد، أو أَنْ يَنْوِيَ الفساد.

١٣- التَّحْذِيرُ مِنَ الْفَسَادِ .

١٤-بيان بَغْي قارون، حَيْثُ لَمْ يَعْتَرِفْ بِفَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِ.

١٥- أَنَّ مَنِ اعْتَقَدَ أَنَّ مَا رَزَقَهُ اللَّهُ مِنْ كَسْبِهِ، فهو مُشابه لقارونَ فِي عَدَمِ اعترافِه بنِعْمَة اللَّهِ، فالإنسان الَّذِي يَقُولُ: حصَّلت هذا بيدي، وبمعرفتي بالأمور والمكاسب. نقول له: أنت مُشابه لقارون.

١٦-تقريع أولئك الذي يفتخرون بسعيهم، بِأَنَّ اللَّهَ تعالى قَدْ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنَ القرون مِمَّنْ هُوَ أَشَدُّ منهم قوةً، وأكثر جمعًا.

١٧-أَنَّ قارونَ كَانَ يُظْهِرُ الأُبَّهة والعَظمة، حيث يَخْرُجُ فِي زينته مِنَ المالِ والرجال.

١٨-أَنَّ ذَوِي النظر القاصر يتمنَّون مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ) .

١٩-أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ الَّذين يعلَمُون حقائِقَ الأُمور، يَدْرُون أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا لَيْسَتْ بشيء، وأَنَّ ثَوَابَ الآخِرَةِ أَعْظَمُ وأَجَلُّ.

٢٠- أَنَّهُ لَا يَنَالُ ثوابَ الآخِرَةِ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا .

٢١-بيان عقوبة التكبر والتعالي وهو الخسف في الأرض .

٢٢-بيانُ قُدْرَةِ اللَّهِ عز وجل.

٢٣- التَّحْذِيرُ مِنَ التعالي والبغي عَلَى الْخَلْقِ.

٢٤- أَنَّ اللَّهَ تعالى إِذَا أَنْزَلَ العقوبةَ بأحدٍ، فَلَيْسَ لَهُ ناصرٌ دُونِ اللَّهِ، ولو عظُمت قُوَّتُه، وكَثُرَ جُنْدُه؛ لقوله (فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ) .

٦١١ – وعن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قَالَ (لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّة مِنْ كِبْرٍ!» فَقَالَ رَجُلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، ونَعْلُهُ حَسَنَةً؟ قَالَ: «إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ) رواه مسلم

«بَطَرُ الحَقِّ»: دَفْعُهُ وَرَدُّهُ عَلَى قَائِلِهِ، وَ «غَمْطُ النَّاسِ»: احْتِقَارُهُمْ.

==========

(لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّة) قيل: لا يدخلها مع أول الداخلين، وقيل: هذا جزاؤه إن جازاه.

(مثقال) وزن.

(ذرة) واحد الذر وهو صغار النمل.

(مِنْ كِبْرٍ) الكِبْر: الارتفاع عن الناس واحتقارهم.

(**فَقَالَ رَجُلٌ : إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ**) لما رَأَى الرجلُ العادةَ في المتكبرين لبسُ الثياب الفاخرة وجرُّ الإزار، وغير ذلك مما يتعاطونه؛ سألَ ما سأل.

(**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ**) أي: له الجمال الْمُطْلَقُ، جمال الذات وجمال الصفات وجمال الأفعال.

(**يُحِبُّ الجَمَالَ**) أي : يحبُّ أن يتجمل العبدُ له ويتزين، كما قال تعالى (خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) .

(**الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ**) دَفْعُهُ وَرَدُّهُ عَلَى قَائِلِهِ .

(**وَغَمْطُ النَّاسِ**) احْتِقَارُهُمْ.

١-الحديث دليل على تحريم التكبر ، وأنه من كبائر الذنوب .

والتكبر: هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير. ... (الغزالي)

وقال بعضهم: الكبر: هو استعظام الإنسان نفسه واستحسان ما فيه من الفضائل والاستهانة بالناس واستصغارهم والترفع على من يجب التواضع له.

٢- أقسام الكبر:

الكِبْر قسمان: كِبْر هو كُفر، وآخَر هو معصية، فالكُفر هو ما كان المتكبَّرُ عليه هو الله ورسوله، أو كتابه، أما المعصية فما دون ذلك .

قال القرطبي : لَمَّا تقرَّر أنَّ الكِبر يستدعي متكبَّرًا عليه، فالمتكبَّر عليه إن كان هو اللهَ تعالى، أو رسولَه، أو الحقَّ الذي جاءتْ به رسلُه، فذلك الكِبر كفْرٌ، وإن كان غير ذلك، فذلك الكِبْر معصية وكبيرة .

٣-خطر الكبر :

هُوَ مِنْ أَوَّلِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي الَّتِي ارْتُكِبَتْ فِي حَقِّ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

قَالَ اللهُ تَعَالَى مُبَيِّنًا سَبَبَ امْتِناعِ إبْلِيسَ عَنِ السُّجُودِ لِآدَمَ (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) .

ولسوء منقلب المتكبر استعاذ منه موسى عليه السلام .

قال الله تعالى (وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ) .

وهو مانع من الهدى والفهم .

قال تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) .

وسبب لختم القلوب على الضلال .

قال تعالى (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) .

وهو سَبَبٌ لدُخولِ النَّار .

قال اللهُ تبارك وتعالى (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ) .

وهو من صفات أهل النار.

قال ﷺ (ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر) رواه مسلم.

وقال ﷺ (احتجت الجنة والنار، فقالت النار: يدخلني الجبارون والمتكبرون) رواه مسلم.

المتكبر يكون عن رسولِ الله من المُبعَدين يومَ القيامة .

قال رسولُ الله ﷺ (إنَّ مِن أحبِّكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنَكم أخلاقًا، وإنَّ مِن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني يومَ القيامة الثرثارون والمتشدِّقون والمتفيهقون، قالوا: يا رسولَ الله، قد علمنا الثرثارين والمتشدّقين، فما المتفيهقون؟ قال: المتكبِّرون) رواه الترمذي

صاحبه لا يدخل الجنة.

قال ﷺ (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر).

وقال ﷺ (العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي) رواه مسلم.

عقوبتهم يطأهم الناس يوم القيامة.

قال ﷺ (المتكبرون يحشرون يوم القيامة أمثال الذر يطأهم الناس بأقدامهم) رواه مسلم.

لا يحب الله المستكبر.

قال تعالى (إنه لا يحب المستكبرين).

لا ينظر الله للمتكبر في إزاره.

قال ﷺ (لا ينظر الله إلى رجل يجر إزاره بطراً) متفق عليه.

٤- من أقوال السلف:

قال مسروق: كفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله.

وقال بعضهم: إذا رأيت الرجل لجوجاً مماريا معجباً برأيه فقد تمت خسارته.

وعن محمد بن علي قال: ما دخل قلب امرئٍ من الكبر شيء إلا نقص من عقله مقدار ذلك.

قال مطرف بن عبد الله: لأن أبيت نائماً وأصبح نائماً أحب إليّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً.

قال الذهبي: لا أفلح والله من زكى نفسه أو أعجبته.

قال أبو سليمان الداراني: من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة.

قال أبو بكر: لا يحقرن أحدٌ أحداً من المسلمين، فإن صغير المسلمين عند الله كبير.

وقال الأحنف بن قيس: ما تكبر أحد إلا من ذلة يجدها في نفسه.

وقال مالك بن دينار: كيف يتكبر من أوله نطفة مذِرَة، وآخره جيفة قَذِرَة، وهو فيما بين ذلك حامل عَذِرة.

وقال حاتم الأصم: أصل المصيبة ثلاثة أشياء: الكبر، والحرص، والحسد.

يا ابنَ الترابِ ومأكولَ الترابِ غداً ... أقصِرْ فإنك مأكولٌ ومشروبُ

وقال عمر بن عبد العزيز: إنه ليمنعني من كثير من الكلام مخافة المباهاة.

قال الغزالي: فالكبر آفة عظيمة هائلة، وفيه يهلك الخواص من الخلق، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء، فضلاً عن عوام الخلق، وكيف لا تعظم آفته وقد قال ﷺ لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، وإنما صار حجاباً دون الجنة، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر يغلق تلك الأبواب كلها، لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، وفيه شيء من الكبر، فما من خُلُقٍ ذميم إلا وصاحب الكبر مضطر إليه ليحفظ كبره، وما من

خُلُقٍ محمودٍ إلَّا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزه، فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه، والأخلاق الذميمة متلازمة، والبعض منها داع إلى البعض، وشر أنواع الكبر ما يمنع من الاستفادة من العلم، وقبول الحق، والانقياد له.

وفي "مختصر منهاج القاصدين : قال سفيان بن عُيَيْنة: مَن كانت معصيتُه في شهوة، فأرجو له التوبة، فإنَّ آدم عليه السلام عصَى مشتهيًا فغُفِر له، فإذا كانتْ معصيتُه من كِبْر، فأخْشَى عليه اللَّعْنة، فإنَّ إبليس عصَى مستكبرًا فلُعِن .

وقال بعضُ الحُكماء: مَن برِئ من ثلاث، نال ثلاثًا: مَن برِئ من السَّرَف نال العِز، ومَن برِئ من البُخل نال الشَّرف، ومَن بَرِئ من الكِبْر نال الكرامة.

٥- درجات التكبر:

الأول: التكبر على الله.

وهو أفحش أنواع الكبر، مثل فرعون حين استكبر وقال: أنا ربكم الأعلى ولذلك قال تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين).

ثانياً: التكبر على الرسل.

كما فعلت الأقوام المكذبة مع رسلها، فترفعت عن الانقياد لهم كما حكى الله عنهم (أنؤمن لبشرين مثلنا) وقال تعالى عنهم (إن أنتم إلا بشر مثلنا).

وهذا الكبر قريب من الأول، وإن كان دونه.

الثالث: التكبر على العباد.

وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره.

وهذا دون الأول والثاني بكثير، لكنه عظيم لأمرين:

أ- أن الكبر والعز والعظمة لا تليق إلا بالملك القادر، فأما العبد الضعيف المملوك العاجز لا يليق به إلا الذل لله والانكسار.

ب- أنه يدعو إلى مخالفة الله في أوامره، لأن المتكبر إذا سمع الحق من عباد الله استنكف عن قبوله.

٦-الأسباب المساعدة على علاج الكبر والابتعاد عنه؟

الأول: تأمل ما في كتاب الله تعالى، وسُنة رسوله ﷺ من الوعيد الشديد للمتكبرين وبُغْض الله تعالى لهم .

الثاني: التذكر دوماً أنه من مساوئ الأخلاق، وأن العبد عارٌ عليه الكبر، فهو صفة الخالق المستغني، وأن المتكبر مكروه من المخلوقين، فالناس لا تحب معاشرة من يستعلي عليهم.

الثالث: لما يتكبَّر الإنسان وبما يتكبر، فليعلم أن كل ما أوتيه من علم أو مال أو عقل أو توفيق أو نجاح أو فلاح إنما هو من الله تعالى (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ) وقد حرم غيره منها، فهل مقابلة النعم تكون بالكبر؟

إن الله يبتليك بهذه النعم، وليست دليل محبته سبحانه وتعالى؛ بل ربما قد تكون استدراك وفتنة (فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا)[الفجر: ١٥-١٧] أي: ليس الأمر كذلك، إنما هو ابتلاء، ومحبة الله تكون للمؤمنين الصابرين عند البلاء، الشاكرين عند النعماء، المتواضعين. فهذه النعم تستوجب مزيد شكر للخالق، وذلة له، ورحمة بالمخلوقين لا كبراً ولا إعراضاً.

الرابع: فلينظر المتكبر المختال في أصله ومآله، وفي ضعفه وموته؛ (مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ * كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ) .

٧-الاستكبار سبب لرد الحق.

قال تعالى (... ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ) .

(وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ) ففيهم تواضع وانقياد للحق واتباعه.

فالتواضع سبب لقبول الحق، ولذلك في الحديث (لا يدخل الجنة من كان في قلبه ...).

٨-**قال ابن القيم** : أرْكان الكفر أربعة: الكِبر والحسد، والغضب والشهوة: فالكبر يمنعُه الانقياد، والحسَد يمنعه قَبول النصيحة وبذْلها، والغَضب يمنعه العدل، والشهوة تمنعه التفرُّغَ للعبادة، فإذا انهدم ركنُ الكِبر سهُل عليه الانقياد، وإذا انهدَم رُكن الحسَد سهُل عليه قَبول النُّصح وبذله، وإذا انهدَم رُكن الغضب سهُل عليه العدل والتواضُع، وإذا انهدَم رُكن الشهوة سهُل عليه الصبر والعَفاف والعبادة .

٩-أن التكبر من الكبائر.

١٠ - تحريم احتقار الناس وفي الحديث (بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم).

وقال ابن مسعود: لو سخرت من كلب لخشيت أن أكون كلباً.

١١-**قال الإمام القرطبي**: قال العلماء: كل ذنب يمكن التستر منه، وإخفاؤه إلا الكبر، فإنه فسق يلزمه الإعلان، وهو أصل العصيان كله".

١٢-**قال ابن رجب** : اعلم أن محبة المساكين لها فوائد كثيرة؛ منها: أنها تزيل الكبر، فإن المستكبر لا يرضى مجالسة المساكين .

١٣-يوم القيامة لا ينفع جمالٌ، ولا قوَّة، ولا أَنْساب، بل مَن أتى اللهَ بقلْبٍ سليم فقد فاز، ومَن تجبَّر وتكبَّر كسرَه الله يوم القيامة، وأذاقه ألوانَ الذلِّ والهوان .

فعن أبي هريرة ﷺ: أنَّ النبي ﷺ قال (لينتهينَّ أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فَحْم جهنم، أو ليكوننَّ أهون على الله – عزَّ وجلَّ – مِن الجُعْل الذي يُدهْدِهُ الخراءَ بأنفه، إنَّ الله أذْهب عنكم عبيةَ الجاهلية وفخرَها بالآباء، إنما هو مؤمِن تقيّ، وفاجِر شقيّ، الناس بنو آدمَ، وآدمُ خُلِق مِن تراب) .

١٤-قوله (**إن الله جميل يحبُّ الجمال**) .

قال ابن هبيرة : فهو يدلِّل على أن تحسين الرجل ثوبَه وتنظيفه يكون عبادة لله –عز وجل–، مِن أنَّه في تنظيفه الثوب: تَطْيِيْبٌ لريحه، وشكرٌ لله –عز وجل– لحاله، وتَظَاهُرُه بالغنى الدافع لأُعْطِيات الناس... فلذلك وغيره قال: «إن الله جميل يحب الجمال» وليس هذا من الكبر في شيء.

قال عبد الحق الدهلوي –رحمه الله–: قوله (يحب الجمال) تفسير للجميل، أي: يحب من عباده من كان جميلًا في أفعاله وأوصافه، ويحب أن يَرى نعمتَه وأفضالَه على عبده. .

وقال الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله–: (يحب الجمال) يعني: يحب التَّجَمُّل، وكلما كان الإنسان مُتَجَمِّلًا كان ذلك أحبُّ إلى الله، إذا كان هذا التجمل مما يَسَعه، يعني: ليس فقيرًا يذهب يتكلَّف الثياب الجميلة أو النعل الجميلة! لكنه قد أنعم الله عليه وتجمَّل، فإنَّ الله تعالى يحب أن يَرى أثر نعمته على عبده.

١٥-**قال ابن القيم** –رحمه الله–: وكما أنَّ الجمال الباطن من أعظم نِعَم الله على عبده؛ فالجمالُ الظاهر نعمةٌ منه أيضًا على عبده يُوجِب شكرًا، فإنْ شكَرَه بتقواه وصيانته؛ ازداد جمالًا على جماله، وإن استعمل جماله في معاصيه سبحانه؛ قلَبَه له شَيْنًا

ظاهرًا في الدنيا قبل الآخرة، فتعودُ تلك المحاسنُ وحشةً وقُبحًا وشَينًا، ويَنفر عنه مَن رآه، فكلُّ منْ لم يتَّقِ الله في حسنه وجماله انقلب قُبحًا وشَينًا يشِينه به بين الناس، فحُسن الباطن يعلو قبحَ الظاهر ويستره، وقبحُ الباطن يعلو جمالَ الظاهر ويستره.

١٦ – أن الإيمان يزيد وينقص.

١٧ – وجوب قبول الحق وهذا من علامات التواضع.

١٨ – فضل التواضع.

١٩ – أن الحق غاية المؤمن حتى لو كان من كافر.

٢٠ – إثبات صفة الجمال لله.

٢١ – إثبات اسم من أسماء الله وهو الجميل.

٢٢ – لبس الملابس الجميلة لكن بشرط عدم الإسراف والمخيلة كما قال – صلى الله عليه وسلم – (كل واشرب من غير مخيل وإسراف).

٢٣ – أن الإسلام دين النظافة.

٦١٢ – وعن سلمة بن الأكوع ﷺ (أنّ رَجُلًا أكَلَ عِنْدَ رسول الله ﷺ بشمالِهِ، فَقَالَ: «كُلْ بيَمِينِكَ» قَالَ: لاَ أسْتَطِيعُ! قَالَ: «لاَ اسْتَطَعْتَ» مَا مَنَعَهُ إلاَّ الكِبْرُ. قَالَ: فما رفَعها إلَى فِيهِ) رواه مسلم.

==========

الحديث نقدم شرحه : ١٥٩

(**قال**) الراوي، وهو سلمة ﷺ .

(**فما رفعها**) أي: يده اليمنى .

(**إلى فيه**) يعني: أن ذلك الرجل لم يستطع بعد ذلك اليوم أن يرفع يده اليمنى إلى فيه، وهو كناية عن كونها شلت بدعائه ﷺ عليه .

١–الحديث دليل على خطر الكبر على أمر رسول الله ﷺ ، حيث دعاء النبي ﷺ لما استكبر ورفض ، حيث أجاب الله تعالى دعاء النبي ﷺ في هذا الرجل، حتى شُلَّت يمينه، فلم يرفعها لفيه بعد ذلك اليوم .

قال أبو العباس القرطبي –رحمه الله–: (لا استطعتَ) دعاء منه عليه؛ لأنَّه لم يكن له في ترك الأكل باليمين عذر، وإنما قصد المخالفة.

وقال ابن علان –رحمه الله–: (قال) داعيًا عليه؛ لِما ظهر له من عناده وكبره عن الانقياد للحق (لا استطعت) .

وقال الملا علي القاري –رحمه الله–: (لا استطعت) دعاء عليه؛ لأنه كَذبَ في اعتذاره.

وقال ابن عثيمين : (لا استطعتَ) لأن الرسول ﷺ عرف أنه متكبر، فقال: «لا استطعتَ» أي: دعا عليه بأن الله تعالى يصيبه بأمر لا يستطيع معه رفع يده اليمنى إلى فمه، فلما قال: «لا استطعتَ» أجاب الله دعوته، فلم يرفعها إلى فمه بعد ذلك، صارت –والعياذ بالله– قائمة كالعصا، لا يستطيع رفعها؛ لأنه استكبر على دين الله –عزّ وجلّ– .

٢–الحديث دليل على أن الكبر سبب لعدم قبول الحق، فالمشكلة لم تكن عجزًا حقيقيًا، وإنما الكِبْر هو الذي منعه.

٣–ذم الكِبْر؛ فقد امتنع الرجل عن الأكل بيمينه تكبرًا، فكانت عاقبته شديدة.

٤–وجوب الأكل باليمين؛ لأن النبي ﷺ أمر الرجل صراحةً بقوله: كُلْ بيمينك .

٥-تحريم الأكل بالشمال من غير عذر؛ لأن النبي ﷺ أنكر على الرجل أكله بشماله.

٦-وجوب امتثال أمر النبي ﷺ، وعدم ردّ أمره أو معارضته بغير عذر.

٧-جواز الدعاء على من خالف أمرًا شرعيًا تكبرًا وعنادًا، فقد قال ﷺ: «لا استطعت».

٨-استجابة دعاء النبي ﷺ؛ فلم يستطع الرجل بعد ذلك رفع يده إلى فيه.

٩-بيان خطورة الاستهزاء أو التعذر الكاذب في الأحكام الشرعية؛ إذ قال الرجل: «لا أستطيع» مع قدرته على ذلك.

١٠-الحث على التواضع وقبول النصيحة، وعدم ردّ الحق بسبب العناد أو الاستكبار.

١١-رحمة النبي ﷺ وحرصه على تعليم أصحابه آداب الطعام؛ فالتوجيه إلى الأكل باليمين من هديه ﷺ.

١٢-أن مخالفة السنة قد تكون بسبب مرض القلب لا بسبب عدم معرفة الحكم، ولذلك ينبغي للمسلم أن يحذر من الكبر والعناد.

١٣-**قال القاضي عياض** -رحمه الله-: فيه إجابة دعاء النبي عليه السلام وتعجيل معاقبة مَن خالف أمره في الدنيا، وهذا يدل على أن الرجل كان منافقًا -والله أعلم-؛ لقوله (ما منعه إلا الكبر) .

وقال النووي -رحمه الله- معقبًا قول القاضي عياض رضي الله عنه: إن قوله (ما منعه إلا الكِبر) يدل على أنه كان منافقًا فليس بصحيح؛ فإن مجرد الكِبر والمخالفة لا يقتضي النفاق والكفر، لكنه معصية إن كان الأمر أمر إيجاب.

قال النووي -رحمه الله-: وفي هذا الحديث: جواز الدعاء على مَن خالف الحكم الشرعي بلا عذر، وفيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل حال حتى في حال الأكل، واستحباب تعليم الآكل آداب الأكل إذا خالف .

١٤-قال ابن عثيمين: فيه دليلٌ على أن الأكل بالشمال حرام.

٦١٣ - وعن حارثة بن وهْبٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول (ألا أُخْبِرُكُمْ بأهْلِ النَّار: كلُّ عُتُلٍ جَوّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ) متفقٌ عَلَيْهِ، وتقدم شرحه في بابِ ضعفةِ المسلمين.

==========

الحديث تقدم شرحه : ٢٥٢ .

(**كلُّ عُتُلٍ**) العُتُلّ: الجافي الغليظ، وقيل: الجافي الشديد الخصومة اللئيم، وقيل: الأكول، وقيل: العتلّ: الشديد من كل شيء.

(**جَوَّاظٍ**) الجوّاظ: بفتح الجيم، وتشديد الواو، وبالظاء المعجمة: الْمَنُوع، أو المختال في مشيته.

١-الحديث دليل على تحريم الكبر ، وأنه من أسباب دخول النار .

٢-ذم قسوة القلب وسوء الخُلُق، فلفظ «عُتُلّ» يدل على الغلظة والجفاء والقسوة، وقيل: هو الشديد الغليظ في معاملته.

٣-التحذير من الجَوَاظ .

٤-أن الأخلاق لها أثر عظيم في مصير الإنسان .

٥-الحث على التواضع ولين الجانب .

٦-خطورة أمراض القلوب، فالحديث يلفت النظر إلى أن الهلاك قد يكون بسبب مرض قلبي مثل الكبر والاستعلاء، وليس فقط بسبب المعاصي الظاهرة.

٧-أن العبرة بحقيقة الأخلاق لا بالمظهر، فقد يكون الإنسان ذا مكانة أو مال أو قوة، لكن ما يرفعه عند الله هو تقواه وأخلاقه، لا ما يملكه من الدنيا.

٦١٤ – وعن أَبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قَالَ (احْتَجّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَت النَّارُ: فِيَّ الْجَبَّارُونَ والْمُتَكَبِّرُونَ. وقالتِ الجَنَّةُ: فِيَّ ضُعفاءُ الناس ومساكينُهُم، فقضى اللهُ بَينهُما: إنكِ الجنّةُ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِك مَنْ أشَاءُ، وَإنَّكِ النَّارُ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أشَاءُ، وَلِكِلَيْكُمَا عَلَيَّ مِلْؤُهَا) رواه مسلم.

==========

الحديث تقدم شرحه : ٢٥٤ .

١–الحديث فيه التحذير الشديد من التكبر والتجبر ، وأن ذلك من أسباب دخول النار .

٢–بيان صفة الجنة والنار ، فالجنة دار الرحمة والنعيم، والنار دار العذاب، وكلتاهما مخلوقتان لله تعالى.

٣–فضل الضعفاء والمساكين ، لقول الجنة (فِيَّ ضعفاء الناس ومساكينهم) يدل على أن ضعف الإنسان وفقره ليسا سببًا لاحتقاره، بل قد يكون الفقر والمسكنة مع الصبر والتقوى سببًا لدخول الجنة.

٤–أن العبرة ليست بالقوة والجاه والمال ، فقد يكون الإنسان ضعيفًا في أعين الناس، لكنه عظيم عند الله بسبب إيمانه وتقواه.

٥–إثبات رحمة الله تعالى .

٦–إثبات عدل الله تعالى .

٧–وجوب التواضع .

٨–الحديث يحث المسلم على ترك الكبر، والتواضع للناس، وعدم احتقار الفقراء والضعفاء.

٩–أن كثرة المال والقوة ليست دليلًا على رضا الله .

١٠–المقياس الحقيقي هو الإيمان والتقوى والعمل الصالح، لا المكانة الدنيوية.

١١– كمال قدرة الله تعالى .

١٢–الجبار والمتكبر يجمعان بين فساد القلب وفساد التعامل ، فالتكبر يكون في القلب، ويظهر أثره في معاملة الإنسان للآخرين بالاحتقار والاستعلاء.

١٣–رحمة الله أوسع من أعمال العبد ، فدخول الجنة ليس لمجرد استحقاق الإنسان لها بعمله، وإنما فضل من الله ورحمته، مع كون الأعمال أسبابًا لدخولها.

١٤–الحديث يجمع بين الرجاء والخوف ، فذكر الجنة ورحمتها يورث الرجاء، وذكر النار وعذابها يورث الخوف، والمؤمن يسير إلى الله بينهما.

١٥–لا ينبغي للمسلم أن يغتر برحمة الله ، فذكر الرحمة لا يعني ترك العمل والطاعة، كما أن ذكر العذاب لا يعني اليأس من رحمة الله.

٦١٥ – وعن أَبي هريرة ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ (لاَ يَنْظُرُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا) متفقٌ عَلَيْهِ.

==========

١–الحديث دليل على تحريم إسبال الثياب بطراً وكبراً ، وأن ذلك من كبائر الذنوب .

وعقوبته : (لا يكلمه الله – ولا ينظر إليه – ولا يزكيه – ولهم عذاب إليم).

أ–لحديث الباب .

ب–وعن أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» قَالَ فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلاَثَ مِرَارٍ. قَالَ أَبُو ذَرٍّ خَابُوا وَخَسِرُوا مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: الْمُسْبِلُ وَالْمَنَّانُ وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ) رواه مسلم

ج–وعن ابن عمر . قال: قال ﷺ (من جر ثوبه مخيلة لم ينظر الله إليه يوم القيامة) رواه البخاري.

وعند مسلم (مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ لَا يُرِيدُ بِذَلِكَ إِلَّا الْمَخِيلَةَ : فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

ورواه أحمد من حديث أبي هريرة بلفظ (لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى الَّذِي يَجُرُّ إِزَارَهُ بَطَرًا). وصححه الألبان

فهذه الأحاديث صريحة في تحريم جر الرجل ثوبه خيلاء، وأن ذلك من الكبائر.

قال الذهبي: الكبيرة الخامسة والخمسون: إسبال الإزار والثوب واللباس والسراويل تعززاً وعجباً وفخراً وخيلاء.

٢– الإسبال لغير الخيلاء ، فهذا اختلف العلماء فيه على قولين:

القول الأول: أنه حرام.

وإليه ذهب الحنابلة في رواية، واختاره القاضي عياض وابن العربي من المالكية.

أ–لحديث أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ (ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار) رواه البخاري.

وجه الدلالة: أن النبي ﷺ توعد المسبل من غير تفريق بين خيلاء وغيره.

قال الخطابي: قوله (فهو في النار) يُتأول على وجهين:

أحدهما: ما دون الكعبين من قدم صاحبه في النار عقوبة له على فعله.

والآخر: إنّ فعله ذلك في النار، أي هو معدود من أفعال أهل النار.

ب–وعن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (إزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه، ولا جناح فيما بينه وبين الكعبين، وما أسفل من الكعبين هو في النار، يقولها ثلاث مرات.) رواه أحمد.

وجه الدلالة: أن النبي ﷺ توعد المسبل ثيابه بالنار من غير تفريق بين خيلاء وغيره، فدل على تحريم الإسبال مطلقاً.

ج– حديث (إياك وإسبال الإزار فإنه من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة) رواه أبو داود.

وجه الدلالة: أنه نص في التحذير من الإسبال مطلقاً، وبيان أنه من المخيلة، وأن الله لا يحب المخيلة.

القول الثاني: أنه مكروه.

وإليه ذهب الحنفية، والمالكية، والشافعية، وهو المذهب عند الحنابلة.

وحملوا الأدلة الناهية عن الإسبال مطلقاً على الأدلة المقيدة للتحريم بالخيلاء، وحينئذ فإن الإسبال المحرّم المنهي عنه إنما هو الإسبال للخيلاء والكبر والبطر، وأما الإسبال الخالي عن هذه الصفة والهيئة فلا يصل إلى درجة التحريم، بل هو محمول على الكراهة.

وقد دل على حمل المطلق على المقيد بالخيلاء في الإسبال ما يلي:

أ–حديث ابن عمر: قال: قال رسول الله ﷺ (من جر ثوبَه خيلاء لم ينظرِ الله إليه يوم القيامة) فقال أبو بكر: إن أحد شقَّيْ ثوبي يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه؟ فقال رسول الله ﷺ (إنك لست تصنعُ ذلك خيلاء) متفق عليه.

قالوا: إن قول النبي ﷺ لأبي بكر: إنك لست تصنع ذلك خيلاء، تصريح بأن مناط التحريم هو الخيلاء، وأن الوعيد المذكور إنما هو لمن جرها خيلاء، وأما من جر ثيابه لغير الخيلاء فإنه لا يدخل في الوعيد.

ب-وبحديث ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (من جر إزاره لا يريد بذلك إلا المِخيلة فإن الله لا ينظر إليه يوم القيامة) رواه مسلم

قالوا: دل بمفهومه على أن من أسبل ثيابه لا يريد بذلك المخيلة لا يلحقه الوعيد المذكور.

والراجح القول الأول: وأن إسبال الثوب لغير الخيلاء حرام.

وما ذهبوا إليه من حمل المطلق على المقيد مردود: بأنّ حمل المطلق على المقيد في هذه الحالة ممتنع لا يصح، لأنه مخالف لما اتفق عليه الأصوليون من أنه لا يصح حمل المطلق على المقيد إلا إذا اتحدا في الحكم، وأما إذا اختلفا فلا خلاف بين الأصوليين في امتناع حمل أحدهما على الآخر: وتوضيح ذلك:

أن الحكم المرتب على حالتي الإسبال كليهما مختلف، فمن أسبل للخيلاء فإن الله تعالى لا ينظر إليه يوم القيامة، ولا يزكيه، ولا يكلمه، وله عذاب أليم، ومن أسبل لغير الخيلاء فإن ما أسفل من الكعبين في النار.

٣-اختلف العلماء في حكم صلاة المسبل على قولين:

القول الأول: أنها صحيحة مع الإثم.

وهو ظاهر مذهب الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنابلة.

عللوا ذلك: بأن النهي عن الإسبال لا يختص بالصلاة، ولا يتعلق بشرط من شروطها فلم يمنع من صحتها، أشبه ما لو صلى وقد لبس عمامة من حرير.

القول الثاني: أنها غير صحيحة.

وهو قول ابن حزم.

لحديث أبي هريرة . قال : قال ﷺ (... إِنَّهُ كَانَ يُصَلِّي وَهُوَ مُسْبِلٌ إِزَارَهُ وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لاَ يَقْبَلُ صَلاَةَ رَجُلٍ مُسْبِلٍ إِزَارَهُ).

وجه الدلالة: أن النبي ﷺ نفى قبول صلاة المسبل، وذلك يقتضي عدم صحتها، إذ أن نفي القبول يقتضي نفي الصحة.

والراجح قول الجمهور.

٤-تحريم الكِبر والخُيلاء؛ لأنهما من الصفات المذمومة التي تُغضب الله تعالى.

٥-التحذير من إسبال الإزار بقصد الخيلاء والتعالي على الناس.

٦-بيان خطورة الكِبر، وأنه قد يكون سببًا للحرمان من نظر الله تعالى يوم القيامة، أي من نظر الرحمة والرضا.

٧-الحث على التواضع وترك التفاخر والتعالي على الآخرين.

٨-أن اللباس من الأمور التي يظهر فيها تواضع المسلم أو كِبره، فينبغي أن يكون بعيدًا عن الشهرة والخيلاء.

٩-وجوب الحذر من احتقار الناس؛ لأن الخيلاء غالبًا تحمل صاحبها على رؤية نفسه فوق الآخرين.

١٠-أن نعمة المال واللباس لا تبرر التفاخر، بل الواجب شكر الله عليها واستعمالها من غير إسراف أو خيلاء.

١١-أن الظاهر قد يدل على ما في القلب؛ فطريقة اللباس والتصرف قد تعكس التواضع أو الكبر.

١٢-أن الجزاء من جنس العمل؛ فمن تعاظم وتكبر على عباد الله استحق هذا الوعيد الشديد.

٦١٦ - وعنه، قَالَ: قَالَ رسول الله (ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَة، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ) رواه مسلم.

«**العَائِلُ**»: **الفَقِيرُ.**

==========

(**شيخ**) أي: من طعن في السن واستطال فيه، وذلك من الخمسين فما فوق.

(**وملك كذاب**) مِلك بكسر اللام، وفي رواية النسائي: والإمام الكاذب.

(**وعائل**) أي: فقير.

(**مستكبر**) أي: متكبر.

١ – غلظ عقوبة هذه الأمور الثلاثة المذكورة في الحديث : شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ .

٢–الحكمة في تخصيص هؤلاء بهذا الوعيد:

قال القرطبي: وإنما غلَّظ العقابَ على هؤلاءِ الثلاثة؛ لأنَّ الحاملَ لهم على تلك المعاصي مَحْضُ المعاندة، واستخفافُ أمرِ تلك المعاصي التي اقتحموها؛ إذْ لم يَحْمِلْهم على ذلك حاملٌ حَاجِيٌّ، ولا دعتهم إليها ضرورةٌ كما تدعو مَنْ لم يكنْ مثلهم.

وبيانُ ذلك: أنَّ الشَّيْخَ لا حاجةَ له ولا داعية تدعوه إلى الزنا؛ لضعفِ داعيةِ النكاحِ في حقِّه، ولكمالِ عَقْلِه، ولقربِ أجله؛ إذ قد انتهى إلى طَرَفِ عمره. ونحوٌ من ذلك: "المِلِكُ الكَذَّابُ"؛ إذْ لا حاجةَ له إلى الكذب؛ فإنه يمكنه أنْ يُمَشِّيَ أغراضَهُ بالصِّدْق، فإنْ خاف من الصدق مفسدةً، وَرَّى.

وأما "العَائِلُ المسْتَكْبِرُ": فاستحقَّ ذلك؛ لغلبة الكِبْرِ على نفسه؛ إذْ لا سببَ له مِنْ خارجٍ يحملُهُ على الكبر؛ فإنَّ الكِبْرَ غالبًا إنما يكونُ بالمالِ والخَوَلِ والجاه، وهو قد عَدِمَ ذلك كلَّه؛ فلا مُوجِبَ له إلا غلبةُ الكِبْرِ على نفسه، وقِلَّةُ مبالاتِهِ بتحريمِهِ وتوعيدِ الشرعِ عليه، مع أنَّ اللائقَ به والمناسبَ لحالِهِ: الذُّلُّ والتواضُعُ؛ لفقره وعجزه.

وقال القاضي عياض: سبب تخصيص هؤلاء بهذا الوعيد أن كلاً منهم التزم المعصية المذكورة مع بعدها منه وعدم ضرورته إليها وضعف دواعيها عنده، وإن كان لا يعذر أحد بذنب، لكن لما لم يكن إلى هذه المعاصي ضرورة مزعجة ولا دواعي معتادة أشبه إقدامهم عليها المعاندة والاستخفاف بحق الله تعالى وقصد معصيته لا لحاجة غيرها، فإن الشيخ لكمال عقله وتمام معرفته بطول ما مرّ عليه من الزمان وضعف أسباب الجماع والشهوة للنساء واختلاف دواعيه لذلك عنده ما يريحه من دواعي الحلال في هذا وتخلى سرّه فكيف بالزنا الحرام، وإنما دواعي ذلك الشباب والحرارة الغريزية وقلة المعرفة وغلبة الشهوة لضعف العقل وصغر السن. وكذلك الإمام لا يخشى من أحد من رعيته، ولا يحتاج إلى مداهنة ومصانعة، فإن الإنسان إنما يداهن ويصانع بالكذب من يحذره ويخشى أذاه أو معاتبته ويطلب عنده بذلك منزلة أو منفعة فهو غنى عن الكذب مطلقاً، وكذلك الفقير العائل قد عدم المال، وإنما سبب الفخر والخيلاء والكبر والارتفاع على القرناء والثروات في الدنيا لكونه ظاهراً فيها وحاجات أهلها إليه، فإذا لم يكن عنده أسبابها فلما يستكبر ويحتقر غيره، فلم يبق فعله وفعل الشيخ الزاني والإمام الكاذب إلا لقرب من الاستخفاف بحق الله تعالى.

٣ – أن الذنوب تتفاوت فيما بينها.

٤ – أن الذنب الواحد يتفاوت في عظمته وخطره.

٥ – أن الزنا بعضه أشد من بعض.

فالزنا بالجارة أعظم من الزنا بالبعيدة:

لحديث ابن مسعود. قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ (أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ) قَالَ: قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ (ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ) قَالَ: قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ (ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ) .

ولحديث المقداد بن الأسود قال: قال ﷺ (لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره) رواه أحمد.

قال النووي: حليلة جارك: أي تزني بها برضاها، وذلك يتضمن الزنا وإفسادها على زوجها واستمالة قلبها إلى الزاني وذلك أفحش، وهو مع امرأة الجار أشد قبحاً وأعظم جرماً، لأن الجار يتوقع من جاره الذب عنه وعن حريمه ويأمن بوائقه ويطمئن إليه، وقد أمر بإكرامه والإحسان إليه، فإذا قابل ها كله بالزنا بامرأته وإفسادها عليه مع تمكنه منها على وجه لا يتمكن غيره منه كان في غاية القبح.

والزنا بزوجات المجاهدين أعظم من غيرهن.

لقوله ﷺ (حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، وما من رجل يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله فيخونه فيهم إلا وُقّف له يوم القيامة فيأخذ من عمله ما شاء، فما ظنكم) رواه مسلم.

وزنا الشيخ الكبير أعظم من زنا الشاب.

لقوله ﷺ (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: شيخ زانٍ، وملك كذاب، وعائل مستكبر) .

وقال ﷺ (أربعة يبغضهم الله: البياع الحلاف، والفقير المحتال، والشيخ الزاني، والإمام الجائر) رواه النسائي.

والزنا بالمحارم.

قال ﷺ (من وقع على ذات محرم فاقتلوه) رواه الترمذي.

٦١٧ – وعنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ (قَالَ الله عز وجل: العِزُّ إزَارِي، والكبرياءُ رِدائي، فَمَنْ يُنَازِعُنِي في وَاحِدٍ منهما فَقَد عَذَّبْتُهُ) رواه مسلم.

==========

١–من صفات الله تعالى: العز والعظمة والكبرياء.

وأما الإزار والرداء : فليسا صفتين، وإنما المراد بذلك : أن الله جل جلاله متصف بالعظمة والكبرياء ، لا ينازعه أحد منهما، كما أن الإزار والرداء يختصان بلابسهما، لا ينازعه فيهما أحد.

وأيضا فالكبرياء حجاب يمنع من رؤية الله تعالى، كما أن الرداء يمنع من رؤية ما سُتر به.

قال الخطابي رحمه الله: معنى هذا الكلام أن الكبرياء والعظمة صفتان لله سبحانه ، اختص بهما ، لا يشركه أحد فيهما ، ولا ينبغي لمخلوق أن يتعاطاهما، لأن صفة المخلوق التواضع والتذلل .

وضرب الرداء والإزار مثلاً في ذلك ؛ يقول –والله أعلم–: كما لا يشرك الإنسانَ في ردائه وإزاره أحدٌ ؛ فكذلك لا يشركني في الكبرياء والعظمة مخلوق . (معالم السنن)

وقال الغزالي : العظمة والكبرياء من الصفات التي تختص بي ولا تنبغي لأحد غيري، كما أن رداء الإنسان وإزاره يختص به لا يشارك فيه، وفيه تحذير شديد من الكبر ومن آفاته حرمان الحق، وعمى القلب عن معرفة آيات الله وفهم أحكامه، والمقت والبغض من الله، وأن خصلة تثمر لك المقت من الله والخزي في الدنيا والنار في الآخرة وتقدح في الدين لحري أن تتباعد عنها.

٢–التحذير الشديد من الكِبر؛ فقد توعد الله من ينازعه في الكبرياء والعظمة بالعذاب.

٣–إثبات العزة والكبرياء لله تعالى، وأنهما من صفاته العظيمة التي تليق بجلاله وكماله.

٤–تحريم الكِبر والتعاظم على الناس؛ لأن الكبرياء لله وحده، وليس للعبد أن يتكبر على عباد الله.

٥–بيان عظمة الله سبحانه وتعالى، وأنه المتفرد بالعظمة والجلال والكمال.

٦–أن العبد ضعيف ومملوك لله، فلا يليق به أن يتعالى أو يرى نفسه فوق غيره.

٧-وجوب تعظيم الله سبحانه، فمعرفة عظمته تورث القلب إجلالًا وخشيةً ومحبةً.

٨-أن صفات الكمال المطلق لله وحده، فالعبد مهما بلغ من القوة والعلم والجاه ففضله محدود، أما كمال الله فلا حد له.

٩-أن الكِبر ينافي كمال العبودية؛ لأن حقيقة العبودية أن يستشعر الإنسان افتقاره إلى ربه وحاجته إليه.

٦١٨ - وعنه: أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ رَأسَهُ، يَخْتَالُ فِي مَشْيَتِهِ، إِذْ خَسَفَ اللهُ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الأَرضِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ) متفقٌ عَلَيْهِ.

«مُرَجِّلٌ رَأسَهُ»: أيْ مُمَشِّطُهُ، «يَتَجَلْجَلُ» بالجيمين: أيْ يَغُوصُ وَيَنْزِلُ .

==========

(**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمشِي**) وفي رواية (بينما رجلٌ يَتَبَخْتَرُ) أي: يختال ويتكبَّر ، وعند مسلم (ممن كان قبلكم) .

قال ابن هبيرة -رحمه الله-: التَّبَخْتُر: مِشْية فيها تَمَايُل.

(**فِي حُلَّةٍ**) الحُلَّة: ثوبان أحدهما فوق الآخر، وقيل: إزار ورداء، وهو الأشهر ، وفي رواية (يمشي في بُرْدَيْه) **قال أبو العباس القرطبي** -رحمه الله-: والبُرْدَان: الرِّدَاءُ، والإزارُ .

(**تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ**) **قال أبو العباس القرطبي** -رحمه الله-: إعجاب الرجل بنفسه: هو ملاحظَتُه لها بعين الكمال والاستحسان، مع نسيان مِنَّة الله تعالى، فإنْ رَفَعَها على الغير واحْتَقَرَه، فهو الكِبر المذموم.

(**مُرَجِّلٌ رَأسَهُ**) تَرْجِيل الشَّعر: المراد به شَعر الرأس خاصة.

(**يَخْتَالُ فِي مَشْيَتِهِ**) أي يمشي متبختراً متمايلاً معجباً بنفسه .

(**إِذْ خَسَفَ اللهُ بِهِ**) أي : الأرض ، المعنى: غَارَتِ الأرضُ بذلك الرَّجُل، يقال: خَسَفَ المكانُ خَسْفًا، من باب ضَرَبَ، وخُسُوفًا أيضًا: غَارَ في الأرض .

(**فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الأَرضِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**) **قال النووي** -رحمه الله-: (يتَجَلْجَلُ) بالجيم، أي: يتحرك وينزل مضطربًا.

وقال القرطبيّ : (يتجلجل) يُخسف به مع تحرّك واضطراب .

١-الحديث دليل على تحريم الإعجاب بالنفس وذمه ؛ فالرجل كان معجبًا بهيئته ولباسه، فعاقبه الله بأن خسف به الأرض إلى يوم القيامة .

قال الراغب الأصفهاني: العجب ظن الإنسان في نفسه استحقاق منزلة هو غير مستحق لها .

سئل ابن المبارك عن العُجْب، فقال : أن ترى أن عندك شيئاً ليس عند غيرِك، لا أعلم في المصلين شيئاً شرًّا من العُجْب .

وقد خسف الله بقارون -كما تقدم- لما تكبر وتعالى وأعجب بنفسه .

٢-عواقب الإعجاب بالنفس .

العجب طريق إلى الهلاك:

قال الله عز وجل (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيم) .

قال المناوي : قال تعالى في قصة قارون (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي) قال الله تعالى (فَخَسَفْنَا بِهِ) فثمرة العجب الهلاك.

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال (إذا قال الرجل: هلك الناس فهو أهلكهم) رواه مسلم .

قال ابن عبد البر : هذا الحديث معناه لا أعلم خلافًا فيه بين أهل العلم: أن الرجل يقول ذلك القول احتقارًا للناس وازدراءً بهم وإعجابًا بنفسه .

والعجب صارف ومانع من العلم النافع والعمل الصالح:

عن أنس . قال : قال ﷺ (إن فيكم قومًا يعبدون ويدأبون، حتى يُعجبَ بهم الناس، وتُعجِبهم نفوسهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية) أخرجه أحمد .

والعجب من أسباب العذاب:

كما في حديث الباب (بينما رجل يمشي في حُلَّةٍ، تعجبه نفسه ... إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة) .

والعجب من أعظم الذنوب التي يجب أن يُخشى منها:

عن أنس . قال : قال ﷺ (لو لم تكونوا تذنبون خشيتُ عليكم أكثر من ذلك: العجب) .

والعجب من أسباب الهزيمة والخسارة وتخلُّف النصر:

قال الله عز وجل (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ) .

قال ابن القيم : فأخبر أن الهزيمة بذنوبهم وإعجابهم، وأن النصر بما أنزله على رسوله وأيده به، إذ لم يكن منه من سبب الهزيمة ما كان منه .

والعجب من المهلكات:

قال ﷺ (ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوًى متبع، وإعجاب المرء بنفسه...) .

قال ابن مسعود : الهلاك في اثنتين: القنوط والعجب .

العجب من أسباب سلب النعم ووقوع العقوبة:

قال الله عز وجل (كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا) .

قال العلامة القاسمي (وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ) أي: بما يوجب سلب النعمة، وهو الكفر والعجب .

والعجب من الأسباب المحبطة للأعمال:

قال الله عز وجل (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) .

قال العلامة الألوسي: يعتقدون أنهم يعملون ذلك على الوجه اللائق؛ لإعجابهم بأعمالهم التي سعَوا في إقامتها، وكابدوا في تحصيلها.

والعجب من أسباب فساد الأعمال:

قال ابن القيم رحمه الله: فلا شيء أفسد للأعمال من العجب ورؤية النفس .

العجب يدعو إلى الكبر:

قال ابن الجوزي رحمه الله: اعلم أن من أسباب الكبر العجب؛ فإن من أُعجب بشيء تكبر به .

بلاء العجب:

قال المبرد رحمه الله : النعمة التي لا يُحسد عليها صاحبها التواضع، والبلاء الذي لا يُرحم صاحبه عليه العجب .

٣-من أقوال السلف :

قال ابنُ القَيِّمِ : وإنَّك أن تبيتَ نائمًا وتصبحَ نادِمًا خيرٌ من أن تبيتَ قائمًا وتُصبِحَ مُعجَبًا؛ فإنَّ المعجَبَ لا يصعَدُ له عَمَلٌ، وإنَّك إن تَضحَكْ وأنت معتَرِفٌ خيرٌ من أن تبكيَ وأنت مُدِلٌّ، وأنينُ المذنِبين أحبُّ إلى اللَّهِ من زَجَلِ المسَبِّحين المدِلِّين، ولعَلَّ اللَّهَ أسقاه بهذا الذَّنبِ دواءً استخرج به داءً قاتِلًا هو فيك ولا تشعُرُ! فلِلَّه في أهلِ طاعتِه ومعصيتِه أسرارٌ لا يعلَمُها إلَّا هو، ولا يطالِعُها إلَّا أهلُ البصائِرِ، فيَعرِفون منها بقَدرِ ما تنالُه معارفُ البَشَرِ .

وعن مُطَرِّفِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ الشِّخِّيرِ، قال: لأن أبيتَ نائِمًا وأُصبِحَ نادِمًا أحَبُّ إليَّ مِن أن أبيتَ قائِمًا وأُصبِحَ مُعجَبًا .

وقال الذَّهبيُّ بعدَ أن أورَد كلامَ مُطَرِّفٍ: (قُلتُ: لا أفلَحَ -واللَّهِ- مَن زَكَّى نفسَه، أو أعجَبَتْه)

وقال عَمرُو بنُ قَيسٍ الملائيُّ: قال إبليسُ: ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه أدرَكْتُ منه حاجتي: مَن استكثَرَ عَمَلَه، ونَسِيَ ذُنوبَه، وأعجِبَ برأيِه .

وكان ذو النُّونِ يقولُ: أربَعُ خِلالٍ لها ثَمَرةٌ: العَجَلةُ، والعُجْبُ، واللَّجاجةُ، والشَّرَهُ؛ فثَمرةُ العَجَلةِ النَّدامةُ، وثَمَرةُ العُجْبِ البُغضُ، وثَمَرةُ اللَّجاجةِ الحَيرةُ، وثَمَرةُ الشَّرَهِ الفاقةُ .

وقال الذهبي : فمن طلب العلم للعمل كسره العلم، وبكى على نفسه، ومن طلب العلم للمدارس والإفتاء والفخر والرياء: تحامق واختال، وازدرى بالناس، وأهلكه العجب .

٤-أن العُجب بالنفس قد يكون مقدمة للكبر؛ فإعجاب الإنسان بنفسه قد يدفعه إلى رؤية نفسه أفضل من غيره، ثم يظهر ذلك في كلامه ومشيته وتعاملاته.

٥-**قال ابن تيمية** : وكثيرًا ما يقرِن الناس بين الرياء والعجب؛ فالرياء من باب الإشراك بالخلق، والعجب من باب الإشراك بالنفس وهذا حال المستكبر، فالمرائي لا يحقق قوله (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) والمعجب لا يحقق قوله (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فمن حقق قوله (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) خرج عن الرياء، ومن حقق قوله (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) خرج عن الإعجاب .

٦-**قال ابن قدامة** رحمه الله: واعلم أن العُجب يدعو إلى الكبر؛ لأنه أحد أسبابه، فيتولد من العُجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة، وهذا مع الخلق، فأما مع الخالق فإن العُجب بالطاعات نتيجة استعظامها، فكأنهَ يمُنُّ على الله تعالى بفعلها، وينسى نعمته عليه بتوفيقه لها، ويعمى عن آفاتها المفسدة لها، وإنما يتفقد آفات الأعمال من خاف ردها دون من رضيها وأُعجب بها، والعُجب إنما يكون بوصف كمال من علم أو عمل، فإن انضاف إلى ذلك أن يرى حقاً له عند الله إدلالاً، فالعُجب يحصل باستعظام ما عُجِب به، والإدلال يوجب توقع الجزاء، مثل أن يتوقع إجابة دعائه وينكر رده .

٧-**قال النووي** رحمه الله: اعلمْ أنَّ الإخلاص قد يَعْرِضُ له آفةُ العجب، فَمَنْ أُعجِبَ بعمله؛ حَبِطَ عملُه، وكذلك مَن استكبر؛ حَبِطَ عملُه .

٨-أن الله قادر على العقوبة بما يشاء؛ فقد خسف الله بالرجل الأرض، وجعل عذابه مستمرًا إلى يوم القيامة.

٩-أن الله سبحانه يمهل ولا يهمل؛ وقد يؤخر العقوبة، لكن ذلك لا يعني سقوطها.

١٠-أن الجزاء قد يكون من جنس العمل؛ فمن تعاظم واختال على الأرض عوقب بالخسف فيها.

١١-ما قاله في "الفتح": مقتضى هذا الحديث أن الأرض لا تأكل جسد هذا الرجل، فيمكن أن يُلْغَزَ به، فيقال: كافر لا يبلى جسده بعد الموت. انتهى .

١٢-**قال القرطبيّ** رحمه الله: يفيد هذا الحديث تركَ الأمن من تعجيل المؤاخذة على الذنوب، وأن عُجب المرء بنفسه، وثوبه، وهيئته حرام، وكبيرة.

٦١٩ - وعن سَلَمةَ بنِ الأكْوَعِ ﷺ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ (لاَ يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ في الجبَّارِين، فَيُصيبَهُ مَا أصَابَهُمْ) رواه الترمذي، وقال: «حديث حسن».

«يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ» أيْ: يَرْتَفِعُ وَيَتَكبَّرُ.

==========

(**يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ**) أي : يرفع نفسه ويعظمها .

١-التحذير الشديد من الكِبر، فالإنسان قد يبدأ بأمور تبدو صغيرة: إعجاب بنفسه، أو احتقار للآخرين، أو تعاظم في المكانة، ثم يستمر حتى يصبح الكبر خُلُقًا ملازمًا له.

٢-أن الكِبر قد يقود صاحبه إلى الهلاك .

٣-أن الأخلاق تتدرج، فالإنسان لا يصبح جبارًا في لحظة، وإنما قد يبدأ بتعظيم النفس والتكبر شيئًا فشيئًا، ولذلك ينبغي علاج الكبر من بدايته.

٤-الحث على التواضع.

٥-التحذير من التشبه بأخلاق الجبارين، فالحديث لا يحذر فقط من ظلم الناس، بل من الطريق والأخلاق التي تقود إلى ذلك، كالاستعلاء والعجب والتكبر.

٦-خطورة تزكية الإنسان لنفسه، فقوله ﷺ (يذهب بنفسه) يدل على أن الإنسان قد يرفع نفسه بنفسه، فيرى لها من الفضل والمكانة ما لا يليق بها.

٧-أن الكبر يبدأ من الداخل قبل أن يظهر على الجوارح، فقد يبدأ الأمر بإعجاب القلب بالنفس، ثم يظهر في الكلام والتعامل والتصرفات.

٨-أن الاستمرار على الخُلُق السيئ يجعله صفة راسخة .

٩-أن الشهرة والمنصب قد يكونان فتنة، كلما ارتفعت مكانة الإنسان احتاج إلى مزيد من مراقبة نفسه؛ لأن كثرة مدح الناس قد تغذي العُجب والغرور.